Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 11, Sep. 2018

Published on Web 01/9/2018

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد الحادي عشر، سبتمبر 2018م

# الاتجاهات الرئيسية في الفكر الروسي المعاصر(1)

**بقلم: ميخائيل إبشتاين***

**ترجمة: د. خالد السباعي**

**الملخص:**

تركز هذه الورقة على أحدث فترة في تطور الفكر الروسي (من الستينيات حتى التسعينيات)، وانطلاقًا من الأنماط الدورية للتاريخ الفكري الروسي، وإني اقترح أن أطلق عليها "الصحوة الثالثة"، وأُعرف الاتجاه الرئيسي لهذه الفترة على أنه "كفاح الفكر ضد "الايدوقراطية"**"، ثم اقترح تصنيفًا للاتجاهات الرئيسية في الفكر الروسي في هذه الفترة: (1) المادية الجدلية في تطورها من الستالينية المتأخرة إلى التصوف الشيوعي الجديد.(2) العقلانية الجديدة والبنيوية.(3) السلوفية الجديدة أو فلسفة الروح الوطنية.(4) الشخصانية والليبرالية.(5) الفلسفة الدينية والتصوف، المسيحية الارثودوكسية وغير التقليدية على حدٍ سواء.(6) وعلم الثقافة أو فلسفة الثقافة.(7) التصورية أو فلسفة ما بعد الحداثة.

{إن الإخوة كارامازوف، ليسوا أوغادًا وإنما فلاسفة، لأن كل الشعب الروسي الحقيقي هم فلاسفة } ***.

{ إنه من طبيعة الشعب الروسي الانخراط في الفلسفة... فقدر الفيلسوف في روسيا مؤلم ومأساوي } ****.

****** Nikolai Berdyaev. The Russian Idea,1946.**

"حقيقة أن المرء يمكن أن يُعدم الفلسفة... أو أن المرء يمكن أن يثبت أن الفلسفة تُعدم ذاتها، لم يكن لها سوى الأثر الضئيل، فإذا كانت حقًا فلسفة، فإنها إذًا كطائر الفنيق، سوف ترتفع ثانية لتحلق من تحت رمادها*".

إن الفترة الأخيرة من البلاهة الديمقراطية "الايدوقراطية" السوفيتية، تقريبًا من أوائل السبعينيات وحتى أواخر الثمانينيات، يمكن أن تُميز على أنها فترة "الصحوة الفلسفية"، وذلك باستخدام التعبير اللطيف

للاهوتي "جورجي فلوروفسكي" (1893– 1979)، " وإن مثل هذه الصحوة عادة ما يسبقها قدر تاريخي معقد إلى حدٍ ما، والتجربة التاريخية الغزيرة والطويلة والمكابدة، التي أضحت الآن موضعًا للتفسير والنقاش، فالحياة الفلسفية تبدأ بوصفها نمطًا جديدًا أو مرحلة جديدة من الوجود الوطني... ويمكن للمرء أن يستشعر في جيل تلك الحقبة بعض الجاذبية التي لا تقاوم للفلسفة، فالشغف والتعطش الفلسفي يُعد ضربًا من الجاذبية السحرية نحو الموضوعات والقضايا الفلسفية(2)، ويشير "فلوروفسكي" هنا إلى "الصحوة الفلسفية" الروسية الأولى في السنوات الممتدة من ثلاثينيات إلى أربعينيات الثامن عشر: على وجه التقريب جيل "تشاداييف" وأوائل المستغربين و"السلافوفيلز" مثل "بيلينسكي" و"هيرزين" و"باكونين" والإخوة "أكساكوف" والإخوة "كيريفسكي"[3].

*Friedrich Schlegel. Athenaeum Fragments, trans. Peter Firchow, 103.

(1) القس جورجي فلوروفسكي، طرق اللاهوت الروسي،(1937)، الطبعة الرابعة، باريس، مطبعة YMCA،1988، ص، ص 234،235.

(2) وفقًا لفلوروفسكي، فإنه بالنسبة للجيل السابق من المثقفين الروس من 1810 وما تلاها، و1820 وما تلاها، كان الشعر قد لعب دور القِبلة الثقافية، وينطبق الشئ نفسه على المثقفين الذين كانوا في أواخر خمسينيات وأوائل ستينيات القرن الماضي مهووسين بالشعر، الذي كان من رموزه كلٌ من: يفتوشينكو وفونيسينسكي وأخمادولينا وأوكوجاوا، وبالفعل فإنهم في أواخر ستينيات القرن الماضي ومطلع السبعينيات لم يسلمو تأثيرهم لشعراء آخرين، وإنما لمفكرين وعلماء، مثل ميخائيل باكتين، ويوري لوتان، وسيرجي اجرنتسيف، وقد صاغ فلوروفسكي صيغة لمثل هذه العملية من النضوج قائلًا: "من المسرح الشعري ينتقل الوعي الابداعي الثقافي الروسي إلى المسرح الفلسفي"، (فلوروفسكي، المرجع السابق، ص، 236).

وقد حدثت الصحوة الفلسفية الثانية لروسيا في العقدين الأولين من القرن العشرين، فيما بعد في أعقاب ثورة 1905 الفاشلة وخيبة أمل الجزء الأكثر ثقافةً من أهل الفكر من المستوى الفكري المتدني للشعبوية والماركسية والنظريات الاشتراكية الأخرى، وترتبط هذه النهضة بمعالم المجموعة الفلسفية (1909)، وبعمل "ميريزكوفسكي" و"روزانوف" و"برديائيف" و"بولجاكوف" و"فرانك" و"فلورنسكي" و"شيستوف" وغيرهم من الممثلين البارزين لِمَا يسمى العصر الفضي.

وأخيرًا، بعد السنوات المخدِرة للفلسفة المادية السوفياتية، حدثت الصحوة الفلسفية الثالثة في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وفي هذه الفترة تم تداول الأعمال الفلسفية في صور مختلفة "ساميتزدات" (النشر الذاتي) و"تاميزدات" أي (هناك النشر، أي في الغرب)، و"توعديزدات" أي (ثم أنشر، أي في روسيا قبل الثورة)، هذه المصنفات حملت سحرًا غامضًا لا يمكن تفسيره من حيث "الحقيقة أو الكذب" و"الاقناع أو التشكيك"، فالمؤثر جدًا من هذه الكتب هو لمؤلفين مثل "برديائيف" و"شيستوف" و"بختين" جعلت من المرء يشعر بأنه منهمكًا في بهجة ولغز وجود التأمل الذاتي.

وعلى مدى السنوات الأربعين الماضية، ظهرت العديد من المدارس "الفلسفية" لتعارض مبادئ "الاديوقراطية" الماركسية السوفياتية، التي هي ذاتها شهدت تغييرات هائلة، وفيما يلي سأعرض بإيجاز سبعة اتجاهات رئيسية للفكر الروسي من الخمسينيات حتى الثمانينيات من القرن العشرين.

أولًا: الماركسية وكان العامل الرئيسي لتحولها في فترة ما بعد الحرب هو ضخ القومية إلى داخل الماركسية، الذي قام به أولًا "ستالين" في مصنفه "علم اللغة" حيث تم إلغاء فئات الطبقة الماركسية التقليدية لصالح فكرة الوحدة الوطنية، على النحو الذي تمثل في سلامة اللغة الوطنية، وهذا الاتجاه عاد للظهور من جديد في الثمانينيات، مع التقارب المتزايد بين الماركسية الرسمية والقاعدة الشعبية والايديولوجية القومية، والتي نمت فيما بعد لتصبح تحالفًا سياسيًا للشيوعيين والفاشيين الجُدد.

وظهرت نزعة تنقيحية أخرى نحو اضفاء طابعًا انسانيًا على الماركسية في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، مع نشر مخطوطات ماركس الفلسفية الاقتصادية المبكرة، وتجسدت تعبيرًا في كتابات "إيفالد إلينكون" و"جنريخ باتيشيف" و"باكون ميلنر إيرينين" ، وقد عانت هذه النزعة ضربة سياسية شديدة مع

فشل عام 1968 من حيث بناء "إشتراكية ذات وجه إنساني" في تشيكو سلوفاكيا"، والتي كشفت عن عدم توافق الإنسانية والماركسية السوفياتية.

وفي وقتٍ لاحق في الثمانينيات تظهر ثلاث نهج جديدة للماركسية، الأول هو محاولة لإنعاش وتعديل الماركسية في أعقاب فشل المشروع الشيوعي السوفياتي، وهذه الصيغة الماركسية لما بعد الشيوعية، تجلت في عمل "سيرغي بلاتونوف"، حيث يقترح تنقية الماركسية من تلوثاتها اللينينية وعلى نحوٍ خاص الستالينينية ومن ثم ادراج حقائق جديدة، مثل النجاح الدائم لاقتصاد السوق، ويرى النهج الثاني أن اللينينية والستالينينية متسقتان مع مبادئ الماركسية، التي ينبغي بالتالي أن تكون مسؤولة عن جميع جرائم الشيوعية ضد الإنسانية، وهذه الصيغة تطورت في كتابات "أليكسندر ياكوفليف" كبير المسؤولين العقائديين للبيريسترويكا، حيث تتضمن نقدًا جذريًا للماركسية بوصفها نظرية غير علمية ومناهضة للإنسانية، والتي بحتميتها الشاملة تقلل من شأن سيادة الوعي، وتنزل الشخصية لمهمة الظروف الاجتماعية، والنهج الثالث، الذي يمكن أن يطلق عليه شيوعية ما بعد ـ الماركسية ( كتمييز عن ماركسية ما بعد ـ الشيوعية ) حيث يمجد الجوانب الدينية للشيوعية التي تم التخلي عنها من قبل الماركسية التقليدية لصالح المادية شبه العلمية، وهذا الموقف، تم التعبير عنه في أعمال "سيرجي كورجينيان" وبدرجة أقل عند "ألكسندر زينوفييف" الذي يشجع على تجديد الشيوعية كعقيدة دينية تشمل أعمق الرؤى للعديد من المعتقدات الشرقية والغربية، ومعارضًة لروح مذهب اللذة والنزعة الاستهلاكية للحضارة الرأسمالية، وهكذا فإن الماركسية تقدم على أنها أحدث شكل من أشكال "الدين الإنساني"، الذي يمكن أن ينقذ البشرية من المزالق الفردية البرجوازية من خلال المثل الروحية العالية والتطلعات الجماعية.

**ثانيًا:** يمكن توحيد عدد من الأساليب المنهجية بداية من أواخر الخمسينيات تحت عنوان العقلانية الجديدة، حيث قام "يوري لوتمان" (1922.1993) مؤسس مدرسة "تارتو" للفلسفة البنيوية الروسية، بإجراء بحث شامل حول ما يطلق عليه "مجال السيرورة المؤدية إلى انتاج الدلالة"– عالم الاشارات، وهو يقدم العديد من الرؤى المنهجية التي تخترق دور أنظمة الاشارات عبر التاريخ والثقافة، كما تم تطوير مشروع التقارب هذا بين العلوم التطبيقية والعلوم الانسانية في مدرسة موسكو للفلسفة البنيوية (فلاديمير توبوروف و فياتشيسلاف

ايفانوف وآخرون)، وكان "ميراب ماماردشفيلي" (1930-1990) و"ألكسندر بياتيغورسكي" (بعض كتاباتهما كتبت بالتعاون بينهما)، قد أجريا تحليلًا ظاهراتيًا للوعي، مع عنايةٍ خاصة بصورة غير تقليدية لأنواع شرقيةٍ من المنطق لما بعد العقلانية، وقد تم بلورة نظرية الأنظمة وعلم المنهج العام من زاوية المشكلات الفلسفية للذكاء الاصطناعي وعلم التحكم الآلي، في أعمال "جورجي ششيدروفيتسكي"، و"فاسيلي ناليموف"، و"يولي شريدر"، و"جورجي ميلنيكوف"، وقد حققت العقلانية الجديدة وخاصة البنيوية تأثيرها الأكبر في الستينيات والسبعينيات، عندما تحدت بجرأة التصوف الاجتماعي للماركسية السوفياتية الأرثوذكسية، ولكن فيما بعد في الثمانينيات انتقل دور البديل الفلسفي الأساسي من الفلسفة البنيوية إلى الفكر الديني، الذي عارض ذاته بصورة متزايدة لمصلحة العقلانية الماركسية القديمة.

**ثالثًا:** أن هناك من بين أكثر الاتجاهات الفكرية تأثيرًا في السبعينيات والثمانينيات صنوفًا من الفكر الأرثوذكسي الديني، وقد تم التعبير عن الرؤى المسيحية للتاريخ والمجتمع المعاصر بصورة قوية من قبل هؤلاء الكتاب الرئيسيين مثل "بوريس باسترناك" و"ألكسندر سولغنيتسين" الذي ألهم العديد من المفكرين الآخرين، وكان الأب "ألكسندر مين"* (1935-1990) اللاهوتي الروسي الأكثر تأثيرًا إلى حدٍ بعيد، والزعيم الروحي الأرثوذكسي في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، في أطروحته المكونة من سبعة مجلدات، في البحث عن الطريق والحقيقة والحياة، وكذلك في كتبه الأخرى، حيث يضع فلسفة الصعود الروحي الذي يقود البشرية من الوثنية إلى الوحي المسيحي لناسوتية الرب، ويمثل الجيل القادم من المفكرين الأرثوذكسيين "تاتيانا غورشيفا" (التي تكتب عن مواضيع ترتبط وتتباين بين الروحانية الأرثودوكسية مع ما بعد الحداثة والحركة النسائية)، و"سيرجي خوروزي" و"إيفغني بارابانوف" و"فيلاديسلاف زيلينسكي"، ومن السمات الرائعة للفكر الديني الجديد نقده الثاقب للتقاليد الأفلاطونية للفلسفة الدينية الروسية (بما في ذلك "الوحدة الكلية" لفلاديمير سولوفيوف وتداعياتها العديدة)، ووفقًا إلى "خوروزهي" فإن الفلسفة المسيحية الأصلية سوف تتخلى عن مثل هذه المفاهيم الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة باعتبارها "الوحدة الكلية"، وسوف تركز بدلًا من ذلك على الاتصال الوجودي بين الإنسان والرب، فالتأمل في مثل هذه العمليات الروحية

كالصلاة والتوبة، والنعمة، ومحاسبة النفس، والصمت، وتوحيد العقل والقلب ـ تلك أفعالًا تصدر من الإرادة الحرة التي تتوسط بصورة حقيقية بين الإنساني والقدسي بوصفها كيانات منفصلة.

وكان الفلاسفة الماركسيون قد تعودوا انتقاد الفكر الديني الروسي (المثالي) باعتباره مظهرًا من مظاهر النظرة العالمية الرجعية أو البرجوازية أو الإقطاعية، التي تتعارض مع التقدم العلمي والاجتماعي، وعلى العكس من ذلك، ينتقد النقاد الجدد بما في ذلك "بارابانوف" و"خوروزهي" و"بوريس بارامونوف" المثالية الروسية، لتواطؤها السري أو اللاواعي مع الثورة الشيوعية، ومفترض منها تمهيد الطريق لهذه الكارثة الاجتماعية من خلال نشر الفظائع المروعة والميتافيزيقية الشمولية (الوحدة الكلية)، ومن هذا المنطلق أثبت المجتمع الروسي أنه قابلًا جدًا للرؤى "المسيانية" (المحررة) للماركسية، وغموض آخر معركة دموية والعصر الذهبي القادم، وعلى وجه التحديد لأن "سولوفيوف" و"فيودورف" و"برديائيف" و"ميرجكوفسكي"" قد ضبطوا روح الأمة إلى مفتاح الوعود الآخروية التي سيتم الوفاء بها، أو على الأقل تم الاستعجال بها من قبل معاصريهم ومواطنيهم، أي من قبل روسيا باعتبارها طليعة ما بعد التاريخ.

**رابعًا:** لقد انتشرت التعاليم الروحية والتوليفية في روسيا منذ سبعينيات القرن العشرين، بعضها غامض وشبه علمي، وهي قريبة من ما يسمى في الولايات المتحدة الأمريكية بـ"العصر الجديد"، وتعد الحركة الكونية (التي تدعى أحيانًا "الإنسان الكوني") الأكثر توحدًا ورسوخًا من بينها، وترد في عمل "نيكولاي فيودورف" (1829 ـ1903) "فلسفة العلة المشتركة"، وأفكاره حول القيامة العالمية للميت، والخلود البدني، والتحول التقني للكون، ويعتبر العلماء البارزين مثل أب رواد الفضاء السوفياتي "قسطنطين تسيولكوفسكي" ورائد الكيمياء الحيوية "فلاديمير فيرنادسكي" هما الجهابذة الرئيسيين في النزعة الكونية، فالنزعة الكونية هي فلسفة المذهب التطوري النشط، الذي يفترض سلفًا الامكانية والضرورة للعقل البشري لتنظيم وترجمة قوانين الطبيعة، فالنزعة الكونية تفسر العمليات التاريخية والاجتماعية والنفسية من خلال تأثيرات الطاقات الكونية، وتؤكد التبعية المتبادلة لأقدار الكون على نشاط العقل البشري، وتعد " سفيتلانا سيميونوفا" أحد أبرز أقطاب هذه الحركة، وهي واحدة من بين عدد من النساء القلائل يشاركن في المناقشات الفلسفية المعاصرة في روسيا، ومن المفارقة أن نظام "فيودوروف" الذي تنادي به يقوم على آراء أبوية للغاية، ويشوه

دور النساء بوصفهن "مغريات" للرجال، ويمنعنهم من أداء واجباتهم المتعلقة بالقيامة نحو "الآباء"، وترتبط النزعة الكونية المعاصرة أيضًا بميتافيزيقيا البيئة، والتصوف البيئي الجديد في أعمال "فيودور جيريونوك"، وقد أعرب "دانييل أندرييف" (1906.1958) عن اتجاه مختلف وأكثر صراحة ومسكونية "توحيدية" عالمية وتوليفي، في كتابه وردة العالم (1950 ـ 1958) ، حيث يطور "أندرييف" رؤية "ماوراء تأريخية" و" ما بعد طبيعية" تحاول أن تستوعب الحكمة الدينية للغرب والشرق على حدٍ سواء، وتمهد السبيل إلى مستقبل "وئام ديني" ونظام عالمي متناغم يقوم على تيوقراطية عالمية، وقدم "نيكولاي روريخ" (1874.1947) وزوجته "إيلينا روريخ" (1879 ـ 1955) نسخة من التوليف الباطني الشرقي والغربي ـ أجني يوغا ـ ويجري أيضًا ترويجها بصورة مكثفة ونشرها من قبل مئات من الجماعات الفكرية الشهيرة بإسم "مراكز روريخ" في روسيا (4).

**خامسًا** ـ يمثل العديد من المفكرين والكتاب المثقفين اتجاهات مختلفة من الفلسفة الشخصية التي تتمثل قيمها العُليا في الحرية والفرد، وبسبب تأثير "دوستويفسكي" المحلي الساحق، إلى جانب مساهمات "روزانوف" و"برديائيف" و"شيستوف" ، سارت الفلسفة الروسية على المسار الوجودي بصورة أسرع من نظيراتها الغربية ، ولم يتم تقديم اطروحات منهجية

شاملة في هذا المجال، ولكن هناك العديد من المقالات والتصنيفات والمذكرات الفلسفية التي كتبها "ميخائيل بريشفين" (1873.1954) و"إياكوف دروسكن" (1902.1980) و"أندريه سينيافسكي" و"غريغوري بوميرانتس" و"بوريس خازانوف" و"ميخائيلو ميخائيلوف"، و"بوريس بارامونوف"، إن تكون الشخصية "الذات" ووعيها الذاتي ومواقفها تجاه الطبيعة والمجتمع، والحب والموت والزمان والمصير، هي المواضيع الرئيسية للفكر الشخصي، وقد اجتذب هذا التقليد التحرري والتعددي الفلسفي أنصارًا مؤثرين في مجال السياسة مثل الأكاديمي "أندريه ساخاروف" والمؤرخ "ناتان إديلمان" (1930.1989)، بالإضافة إلى المؤيدين البارزين في الشعر والقصة، بما في ذلك "جوزيف برودسكي" (1940.1996) و"أندريه بيتوف"، وكلاهما يعبر عن رؤى شخصية في كتاباتهم المقالية ونثرهم الفلسفي.

سادسًا ـ أن الأيديولوجية القومية التي ظهرت في أوائل السبعينيات وتصاعدت بسرعة في روسيا في روسيا ما بعد الشيوعية، قد أدت إلى انتاج نخبة فكرية خاصة بها: من الكتاب والنقاد والمؤرخين والعلماء الذين يحاولون خلق فلسفة للروح الوطنية (التي بصورة اعتيادية، وإن لم تكن بالضرورة مرتبطة بآراء اليمين) تشمل أسلافها الثقافيين الرئيسيين بما في ذلك السلافيليين الروس في القرن التاسع عشر والأوراسيويين في العشرينات من القرن الماضي، ومصادرًا ألمانية وفرنسية وايطالية في القرن العشرين، مثل "رينيه غينون" (1886-1951)، و"يوليوس إيفولا" (1898-1974)، مؤسسي النزعة التقليدية المعاصرة بوصفها نظامًا ميتافيزيقيًا، قد تم الاستشهاد بهم كثيرًا جدًا أيضًا، ويمكن وضع الكتابات العلنية المؤثرة "لإسكندر سولغنيتسين" والاطروحات الاثنوغرافية* التاريخية "لليف غوميليف" (1912-1990)، في هذه الفئة من حيث

---

- الاثنوغرافية: الدراسات الخاصة بوصف الأجناس البشرية.

أنها تتعلق بقضايا فلسفية عامة، مثل العلاقة بين الثقافة والأمة، والمسؤولية الجماعية والذنب، والطاقة الإحيائية والأنماط الأخلاقية للجماعات الاثنية، على سبيل المثال، يقدم "غوميليف" نظرية أصلية (والتي تردد أحيانًا "مورفولوجيا" أشكال وبنية الثقافة لدى "أوزفالد شبينغلر" التي تفسر صعود وانهيار البُنى العرقية "الاثنية" بالعوامل الاحيائية بدلًا من العوامل الاجتماعية، أي عن طريق ضخ غير متناسب للطاقات الكونية في الكتلة الاحيائية للبشرية، ومفهوم "غوميليف" الرئيسي هو "الدافع" أو "العاطفة"، التي تتراكم في "الشخصيات البطولية" لدى أمم وعهود معينة هو ما يمثل انجازاتهم التاريخية، وحتى الممثلين الأكثر تطرفًا من القومية المحافظة نفسها، وهم الناقد "فاديم كوزينوف" وعالم الرياضيات "ايغور شافاريفيتش" الذين طوروا نظرّة تشاؤمية حول التاريخ الروسي والسوفياتي بوصفه مهدد بصورة دائمة ومقوض من الداخل من قبل غير الروس وبشكل خاص من اليهود.

وفي نهاية المطاف، ظهر تعديلان للقومية في الثمانينيات والتسعينيات، الأول قدمه "فيكتور أكسيوشيتس" ويتمثل في المحافظة المعتدلة، مدعيًا القيم الخالدة للمسيحية الأرثوذكسية بإعتبارها إرث روسي على وجه التحديد موجه إلى تقديم روح المصالحة الوطنية في مجتمع مُزق بالتعددية المتشددة والحزبية، أما الآخر فيروج له أليكساندر دوجين " ويتمثل في التقليدية الجذرية، حيث يُعلن عن استعادة الوثنية، والإرث المقصور على فئة معينة، ومن ثم توحيد أوراسيا في امبراطورية واحدة تحت اشراف روسي بهدف شن حرب روحية على العلماني والمادي، وعلى خلاف المحافظين الآخرين، وبقوميتهم الروسية أو السلافية بصورة خاصة، يحاول التقليديون توحيد الحركات اليمينية المتطرفة في العالم بأسره، الأمر الذي يكشف أنهم مدنيين أكثر للفكر الفاشي الألماني والفرنسي والايطالي، أو أيديولوجيين شبه فاشيين أكثر مما كان عليه الحال مقارنة بالسلافيين الروس في القرن التاسع عشر.

ويعتقد التقليديون المتطرفين أنه بعد الثورات اليسارية والديمقراطية في الاساس في فرنسا وأمريكيا وروسيا، تخلى العالم عن التقليد وباع نفسه إلى شيطان الرخاء المادي، ولهذا السبب ثمة حاجة إلى ثورة ميتافيزيقية جديدة، وهذه المرة ثورة يمينية، تتعارض مع الطبيعة الثورية التقليدية، من حيث أنها تسعى إلى استعادة الأسس الروحية للعالم التي دفنتها حضارة منحلة في سعيها إلى التقدم.

سابعًا ـ ثمة اتجاه مهم آخر في السبعينيات والثمانينيات يتمثل في "علم الثقافة"* وفلسفة الحوار الثقافي وحرية الارادة من خلال "الاختلاف" أو "الآخر"، ويتناول علم الثقافة، الثقافة بوصفها نظامًا متكاملًا من ثقافات متنوعة وطنية ومهنية وعنصرية وجنسية، وهكذا يمكن تعريف علم الثقافة بأنه ترتيب ما ورائي يبحث في الترابط بين مختلف ظواهر الثقافة في مجالات السياسة والعلوم والفن والآدب والدين، أحد أسباب صعود علم الثقافة هو الميل التقليدي للثقافة الروسية للقضاء على التخصص الشاق لمختلف التخصصات والمهن التي تميز الانماط الغربية للانتاج الثقافي، وفي روسيا الشيوعية، تحققت هذه الوحدة على أسس أيديولوجية قدمت مجموعة كاملة من الأنشطة الثقافية إلى هيمنة السياسة، وأضحى علم الثقافة ميدانًا للتفاعل المتعدد التخصصات، مما يشكل بديلًا لتجاوزات التخصص العلمي وضغوطات الشمولية الإيديولوجية على حدٍ سواء، وفي علم الثقافة يجري تناول الثقافة على أنها مفهوم وصفي وليس مفهوم

معياري، فالمصطلح ذاته يجري استخدامه في المفرد وفي الجمع، فالثقافة بوصفها الوحدة النهائية لمجالات التخصصات تفترض بصورة مسبقة تنوع الثقافات على أنه نماذجًا وطنية وتاريخية متعددة، كلٌ منها لها مبدأ تكويني

- علم الثقافة: هو فرع من العلوم الاجتماعية التي تهتم بالفهم العلمي وبوصف وتحليل وتعديل الثقافة ودراسة أنماطها ووظائفها وعملياتها ونموها وتدهورها، أما ممارساتها فهي تدرس ضمن علم الأعراق، وكذلك علم الإنسان أو الأنثروبولوجيا.

خاص بها يستعصي على الأخرى، ويحاول علم الثقافة النظر إلى الثقافة في مصطلحاتها الخاصة، ومن ثم تطوير لغة شاملة تتجنب الوقوع في تسييس أو علموية أو جملنة أو أخلقة، أو اضفاء الطابع المطلق أي جانب منفرد من جوانب الثقافة.

وقد تلقى علم الثقافة زخمًا من "ميخائيل بختين" (1895 ـ 1975)، الذي أكد في أعماله التالية بأن "الثقافة توجد فقط على حدود الثقافات الأخرى"، وجاء التأثير القوي الآخر من "ألكسي لوسيف" (1893ـ 1988)، الذي طور فلسفته (المثالية الجدلية) و(علم الأساطير المطلق) في المقام الأول على مادة العصر القديم التقليدي "الكلاسيكي" (تاريخ علم الجمال التقليدي في ثمانية مجلدات 1963 ـ 1988)، ومن بين ممثلي علم الثقافة "فلاديمير بيبلر" الذي استطاع أن ينشئ مدرسته المنهجية الخاصة بـ"المنطق الحواري" في تاريخ العُلوم والانسانيات، و"سيرجي أفيرينتسيف" الباحث المتألق في مجال العصر القديم والحضارة البيزنطية، الذي بلور الجوانب الفلسفية للتراث الثقافي والابداع، مع التركيز بصورة خاصة على مشاكل الرمز والتفاعل بين الانماط الدينية والدنيوية "العلمانية" للثقافة.

ثامنًا ـ يعد اتجاه ما بعد البنيوية آخر اتجاه يستحق الذكر ويقابل نموذج ما بعد البنيوي في الغرب، ويمكن تعريف أحد أكثر نسخها الأصلية على أنها مذهبًا تصوريًا، وهذا الاسم في العادة يشير إلى حركة مشهورة في الفنون والآداب الروسية في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، ولكن يمكن أيضًا أن ينطبق بصورة

مناسبة على مجموعة واسعة من الأفكار النقدية والفلسفية التي تستكمل وتبرز هذه الحركة، وتفترض النزعة التصورية أن بعض الخطط التصورية تكمن وراء البناء الايديولوجي للحقيقة وتحدد طابعها المفتعل والاصطلاحي (الصوري والتقليدي)، فالتفكير التصوري مشحون بالتهكم

والسخرية وبالشعور بالنسبية، وذلك لما كان الحق والواقع يعتبران مقولات فارغة، والعلاقة بين النزعة التصورية "المفاهيمية" والماركسية تذكرنا إلى حدٍ ما بالخلاف بين الاسمائيين* والواقعيين** في عهد الفلاسفة المدرسيين في العصور الوسطى، فبينما يؤكد الماركسيين الواقع التاريخي لمفاهيم مثل الجماعية والمساواة والحرية، فإن أتباع النزعة التصورية "المفاهيميين" يبرهنون على أن هذه المفاهيم إما أن تكون متوقفة على البُنى العقلية أو أنها مستمدة من بُنى لغوية، وكل شكل ثقافي يتم فهمه وتصوره في ضوء تركيبات من رموز سابقة، مثل اللغة الايديولوجية السوفيتية أو مدونة الرواية النفسية الروسية، ويمكن العثور على المناهج العامة للنزعة التصورية "المفاهيمية"*** في الأعمال النظرية والفنية التي قدمها "أندري سينيافسكي"(5)، و"إيليا كاباكوف" و"فيتالي كومار" و"ألكسندر ملاميد" و"بوريس غرويس".

نسخة أخرى فلسفية لما بعد البنيوية مقدمة من خلال مختبر الفلسفة غير التقليدية في معهد الفلسفة في موسكو، وعلى نحو خاص، من قبل هؤلاء المؤلفين

مثل "فاليري بودوروغا" و"ميخائيل ريكلين" و"ميخائيل يامبولسكي" فهم ينشرون مجموعة فلسفية "على الهامش" (سلسلة كتاب سنوية) مستوحاة منهجيًا من المفكرين الفرنسيين المعاصرين (جاك دريدا وجيل ديليوز وفيلكس غواتاري وآخرون)، وتمثل أعمال "بودوروغا" مجموعة أصلية من القراءات الظاهراتية والهرمنيوطيقية والتفكيكية للفلاسفة الألمان والكتاب الروس مع التركيز بصورة خاصة على "استراتيجية التواصل" في الكتابة والقراءة والنوعية المادية والمكانية للنصوص بوصفها "مناظر طبيعية".

وبطبيعة الحال، فإن الحركات الثماني المذكورة آنفًا لم تعالج التعقيد التام للحياة الفكرية في روسيا، كما لا تمثل حتى تفسيرًا للعمل الهجين لبعض المفكرين المتخصصين، على سبيل المثال، أنشأ "جورجي غاتشيف" نوعًا شموليًا أصيلًا من الكتابة يتضمن عناصر مثل "التفكير الحي" و"الصورة الوطنية للعالم" و"النظرة الإنسانية للعلوم الطبيعية"، فتفكيره يجمع الصفات الخاصة لهذه الاتجاهات المتباينة مثل علم الثقافة

والنزعة الشخصية، وفلسفة الروح الوطنية، والفكر الروسي المعاصر متعدد المعاني، وليس مجرد تعددية فحسب، بمعنى أن المواقف والأصوات المختلفة تتفاعل في وعي المفكرين المتخصصين الأكثر ابداعًا، ونادرًا في تاريخ الفكر ما مثلت الفلسفة مثل هذه القوة التحررية كما فعلت في روسيا من الستينيات وحتى الثمانينيات من القرن الماضي، وقد أسست الدولة السوفياتية نظامًا جامدًا من الأفكار "أثبت مرة وإلى الأبد" التي تهدف إلى ادامة سيادتها على العقل الفردي، ولهذا السبب فإن التفكير الفلسفي الذي بطبيعته يتجاوز حدود النظام القائم، والأسئلة التي تفرضها الممارسات، كان موضع شك دائم باعتباره نشاطًا مناهضًا للدولة، فأنْ تتفلسف كان يعد عملًا من أعمال التحرر الذاتي من خلال ادراك نسبية الخطاب الايديولوجي السائد، ونادرًا ما نضجت الأفكار الفلسفية في الاتحاد السوفييتي إلى نظمٍ متوازنة ومكتفية ذاتيًا، لأن الدولة ادعت لنفسها امتياز اتمام واسهاب الأفكار في طريقة منهجية منظمة.

وكان قدر المفكرين غير الماركسيين هو حل هذه النظم الايديوقراطية في مجموعة من التفكير النقدي والعفوي، الذي حاول تجاوز النظم الممكنة، من أجل تقويضها بدلًا من توطيدها، وبما أن الفلسفة الرسمية عملت كأداة للسلطة، فإن مهمة وميزة الفلسفة غير الرسمية هي النهوض بأنماط التفكير المناهضة للشمولية، وبالتالي ازالة المركزية من بنية الخطاب وتفكيك أي مبدأ ممكن للمنهجية، وقد حاول الفكر تحرير ذاته من "الايديوقراطية" "حكم البلهاء" من خلال وضع جذور في كيانات أصيلة وعيانية تتجاوز التعميمات الايديولوجية، مثل الايمان بالله الحي، والتفرد الوجودي للشخصية، والروح العضوية للأمة، والمصداقية التجريبية للعلوم، والمعاني الرمزية للثقافة، وأخيرًا من خلال تحدي الخطاب الرئيسي للعقيدة "الايديولوجية" السوفيتية عبر محاكاتها الساخرة ومبالغتها، وكل هذه الاتجاهات في الفلسفة من ـ عقلانية جديدة ودينية وشخصية ووطنية وثقافية علمية وما بعد بنيوية ـ كانت في البداية وبصورة متعمدة شكلًا من أشكال التحرر الذاتي الفكري.

وعلى أية حال، فإن المنطق الداخلي للتطور، أدى ببعض هذه المدارس الفكرية ولاسيما فلسفات الروح الوطنية والتوفيق الديني، إلى مشاريع مجددة ومطورة لايديوقراطية ما بعد الشيوعية.

والواقع، أننا إذا حاولنا تلخيص أحدث التطورات في الفكر الروسي (التسعينيات)، فإننا نكتشف اتجاهًا عامًا لتطرف طموحاته الميتافيزيقية، ويمكن تحديد هذا الاتجاه في هذه الحركات المتنوعة "كالماركسية"، المتمثلة في الشيوعية الآخروية عند "سيرجي كورجينيان"، والقومية مع التقليدية المتطرفة لدى "ألكسندر دوجين"، و"الفلسفة الدينية" بالشعبية المتزايدة في كونية "نيكولاي فيودوروف" وفي ترشيد دانييل أندرييف "ما بين الأديان" في "وردة العالم"، حتى الحركات التي تبدو أكثر مقاومة للفرضيات الميتافيزيقية، كالبنيوية، وعلم الثقافة، والنزعة التصورية، تكشف عن الميل المتزايد للادعاءات الشمولية، وعلى سبيل المثال، أن أعمال "يوري لوتمان" و"فاسيلي ناليموف" اللاحقة زاخرة بميتافيزيقيا الصدفة، والتواصل، واللاحتمية، ويقيم "جورجي غاتشيف" بنًى كونية ذات نزوع عاطفي طموحه أكثر بكثير مما أنجزه سابقيه "بختين" و"لوسيف" و"ليخاشيف" في علم الثقافة، فهل من قبيل المصادفة أن هذا الانتشار للخطابات الميتافيزيقية المتطرفة الجديدة قد نشأ مع تدهور وانهيار النظام الايديوقراطي للسلطة السوفيتية.

لم يكن النظام السوفياتي كيانًا سياسيًا وتشريعيًا فحسب، بل كان قائمًا على رؤية ميتافيزيقية وحتى أخروية، أطلق عليه بصورة رسمية الماركسية، ولم تنبع أيضًا من تفلسف نبوي لفترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لذلك، فإن انهيار النظام السوفياتي ترك شيئًا أكثر من مجرد الاصلاح الحكومي، حيث ترك الفراغ الميتافيزيقي والتطلُع إلى تعبئته، وإذا كان المزاج السائد بين المفكرين في أواخر الحقبة السوفياتية يتمثل في تحدي "الايديوقراطية" وازالة الغموض الذي يكتنفها، فإن انهيار تلك "الايديوقراطية" قد خلق العديد من السجالات والمحاكاة بين المجموعات الفكرية المختلفة، التي حاولت على الأقل من الناحية النظرية بناء نظام "أيديوقراطي" جديد على نحو أكثر حزمًا ورسوخًا، قوميًا وتقنيًا و/أو من حيث الأساس الديني.

ومن الناحية التقليدية، فإنه في روسيا قد رتبت البرامج السياسية بالاستناد إلى اطار من أكثر الأفكار الفلسفية عمومية، ففي أوائل التسعينيات كانت النظريات الميتافيزيقية المتنافسة تسرع في ملء الموقع المدمر والمحفور بوضع أساس لبنية سياسية جديدة، وقد تمخض موت الحزب الواحد "الأكبر" "شمولية" عن ميلادٍ لعددٍ من الأحزاب الأصغر، فالعديد من السياسيين من التوجهين اليساري واليميني، مثل "فلاديمير

جيرينوفسكي" و"ألكسندر روتسكوي" وحتى الزعيم الشيوعي الجديد "غينادي زيوغانوف" وظف أفكارًا ميتافيزيقية بصورة متسقة نوعًا ما لتبرير طموحاتهم للقيادة الفكرية.

هذا الاتجاه العام كان سمة العقلية الروسية بشكل عام، بيد أنه تفاقم في أوائل التسعينيات، من خلال تزايد عدم الاستقرار السياسي، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "الميتافيزيقيا المتطرفة"، فالتطرف السياسي ينبع من جوهر هذا النوع من الميتافيزيقيا التي تتبع النظرية الماركسية، التي لا تقصر ذاتها على تفسير العالم، بل تحاول تغييره، وفي الوقت ذاته، فإنه لا يمكن لأي سياسة بذريعة تحويل العالم بصورة جذرية أن تقصر ذاتها على الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية، بل ينبغي أن تستلزم فرضيات ميتافيزيقية، وفي الغرب المعاصر تسعى السياسة عادة إلى تحقيق غايات أقل توسعية لإحداث تحسينًا جزئيًا في النظم القائمة، وبالتالي بعيدة عن الاعتبارات الميتافيزيقية أو على الأقل أنها تتظاهر بذلك، وبما أن الحركيات التاريخية ليست تطورية وإنما مدمرة وكارثية، فإن كل فاصل في الاستمرارية السياسية يتطلب تجدد التأمل الميتافيزيقي والتلقين المذهبي من أجل تبرير النظام الاجتماعي الجديد تمامًا، وإنه لضرب من الميتافيزيقيا معالجة العالم ككل، حيث أن هدف الراديكالية السياسية هو تحويل هذا الكل تمامًا، وعلية فإن كلا من الراديكالية الميتافيزيقية والسياسية تعتمدان على بعضهما البعض، حيث أن التجارب الاستبدادية في القرن العشرين، قد أظهرت: أن كلا من التطرف الشيوعي والفاشي قد قدما ادعاءات ميتافيزيقية قوية، فالفلسفة الروسية التي كانت قد قاومت من الخمسينيات وحتى الثمانينيات من القرن الماضي القبضة الخانقة للايديوقراطية السوفياتية، وهي قد تعمل الآن على تهيئة الأساس لنوع جديد من الايديوقراطية، قائمة فعلا على أفكار كونية وثيوقراطية عالمية، وتقليدية راديكالية وأوراسيانية أو شيوعية أخروية، فالخيارات تتنوع.

إن التطرف الميتافيزيقي هو نوع محدد من الخطاب الفلسفي الذي يتجاهل النقد الكانطي للميتافيزيقيا، ويدعي تخطي الحدود المعرفية المفروضة على القدرات الادراكية البشرية، إنه يعتمد على الحقيقة المنزلة/ المنكشفة و"الواضحة بذاتها" أو المقبولة بشكل عام، أو القيم التي يُعد الوصول إليها بصورة مباشرة سهلًا بالنسبة للعقل البشري، وعلى أية حال، فإنه لا يمكن ربط هذا النمط الفلسفي بالميتافيزيقيا الساذجة التي انتقدها "كانط"، إذ أنه لا يطمح إلى المعرفة الكافية، وإنما إلى التحول العملي للعالم، ليس نحو الحقيقة

وإنما نحو القوة، فبالنسبة للتطرف الميتافيزيقي تبقى الحدود المعرفية فعالة، لكن غير ذات صلة ذلك أنها يمكن أن تتخطى/ تتعالى سياسيًا وبصورة اختيارية، باعتبارها اسقاط عالم مختلف يتم تنفيذه من قبل قوى الثورة التقنية والوطنية والاجتماعية، وهذه ليس مرحلة ميتافيزيقيا وصفية ما قبل النقدية، ولكن ميتافيزيقيا وصفية ما بعد النقدية، والتي تعتمد على الرغبة المقموعة وتستفيد من اللاوعي الجمعي، والمثقفين الغربيين على دراية بهذا النوع من التأمل المتلهف من خلال مفكري اليسار الجدد مثل "هربارت ماركيوز"، ولكن التمايز الرئيسي لغالبية المفكرين الروس المعاصرين "اليمين الجدد" هو توجههم إلى الماضي المطلق، إلى احياء الأسلاف واستعادة التقليد.

ومن المعروف أن الجمل في صيغة الأمر لا يمكن أن تخضع إلى معايير التحقق، وكما يقول "رومان جاكوبسون": "إن الجمل في صيغة الأمر تخالف اختلافًا قاطعًا عن الجمل التصريحية أو التعريفية: فالأخيرة والسابقة ليستا مسؤولتين عن اختبار الحقيقة"(6)، فعبارة "أفعل هذا" هي بخلاف " هي/ هو من فعل هذا" أو أن "هذا قد فُعل"، فلا أن يُعترض بالسؤال "هل صحيح أم لا؟"، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الميتافيزيقيا في صيغة الأمر، والتي على خلاف الصيغة الدلالية لميتافيزيقيا ما قبل الكانطية، حيث تتجنب الاعتراضات النقدية نظرًا لصدقيتها، لقد كان نقد كانط للديجماطيقية "الإيقانية" الفلسفية حاسمًا بصورة قطعية فيما يتعلق بـ"التصريحات" الميتافيزيقية، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يساعد ذلك على ازالة الغموض عن "الضرورات" الميتافيزيقية، التي أخذت في الانتشار في القرنين التاسع عشر والعشرين، وذلك على وجه التحديد كنتيجة للقيود الكانطية على العقل النظري؟

إن التحالف بين الميتافيزيقيا والسياسة له فوائد لكل منهما، فمن حيث الممارسة فإنه يركز على هدف واحد، وعلى اتجاه واحد من التغيير، وكالفلسفة، حيث يفترض ذاته وراء الحقيقة والباطل، وتنوعًا في المواقف ممكنًا في الفلسفة فقط بقدر ما تفسر العالم، ولكن مهمة تغيير العالم تترك موقفًا واحدًا، وهو ذلك الذي صادقت عليه بوصفه صحيحًا والزاميًا، وأحد أشهر تصريحات "كارل ماركس" حول مهام الفلسفة هي أطروحته الحادية عشر عن "فويرباخ" حيث يقول: "إن الفلاسفة لم يفسرو العالم بطرق مختلفة، وإن المسألة على أية حال هي تغييره"، وهناك عدم تماثل فضولي في هذه العبارة: الانتقال من "تفسير" إلى "تغيير" تحقق

على حساب "التباين" الذي سقط في الجزء الثاني من الأطروحة، فمن الممكن تفسير العالم بطرق مختلفة، ولكن من المفترض أن هناك طريقة واحدة أو اتجاه لتحولها العملي، وهذا يبين مدى تأصل الأثار الشمولية في مشروع الفلسفة ذاته بوصفه اجراء سياسي/عملي.

ثمة هناك توترات شديدة، تنشأ من مصادر ايديولوجية متنوعة، من بين الاتجاهات التمثيلية للتطرف الميتافيزيقي، وعلى سبيل المثال، أن التقليديين الثوريين قد ألهموا من قبل هؤلاء المفكرين اليمينيين المتطرفين مثل "رينيه غينون" و"يوليوس ايفولا"، حيث يدينون "الكونية الفيودوروفية" بوصفها هرطقة يسارية تكنوقراطية مهووسة بفكرة التقدم، والتطور الإنساني الفعال المحكوم ذاتيًا، ويدين منظرّي معسكر "جيرينوفسكي" الفاشي الجديد أتباع الرؤى التقليدية الثورية بسبب اغترابهم الرومانسي عن المشهد المعاصر وهوسهم بالماضي(7)، ومع ذلك، فإن هذه الخصومات تلقي الضوء على وحدة هامة من التطرف الميتافيزيقي، وليس في مضامين محتويات محددة للمشاريع الفردية التي تقع ضمن مجالها، ولكن في النمط ذاته من التفكير الاسقاطي الذي يحدد مجموعة من الأفكار حول ما ينبغي أن يكون عليه العالم، في حين ترفض تمامًا العالم كما هو عليه، وقد كتب "فيودوروف" مؤسس الحركة "الكوزمية" "الكونية" الروسية: " إن الفلسفة ينبغي أن تصير المعرفة ليس لما هو كائن، ولكن لما ينبغي أن يكون، أي من التفسير التأملي السلبي للوجود، بحيث ينبغي أن تصبح مشروعًا نشطًا لما ينبغي أن يكون، مشروعًا لاجراء كوني عالمي"(8)، وليس من تبنوا رؤية "فيودوروف" فقط، وإنما يمكن للثوريين من أتباع الرؤية التقليدية والمثاليين الماركسيين الجدد أن يشتركوا في هذه العبارة لما ينبغي أن تقوم به في وجه المشاكل العالمية، وما ينبغي أن يصيره العالم باسم الأفكار الفلسفية، ويمكن العثور على صيغة الأثار السياسية لهذا التطرف الميتافيزيقي في نبوءة نيتشه :" إن زمن النضال من أجل السيطرة على العالم يعتمد علينا؛ وسوف يتم ذلك باسم المبادئ الفلسفية الأساسية"(9)، ويستشهد الثوريين الميتافيزيقيين الروس كنموذج بمصير مبادئ نيتشه الخاصة أن: المجندين الألمان يذهبون إلى خنادق الحرب العالمية الأولى مع مجلدات زرادشت في حقائبهم".

إن عدم التوافق الايديولوجي بين الخطابات الماركسية والقومية والدينية، والذي فرقهم بشدة في أواخر الحقبة السوفياتية، يصير الآن أكثر فأكثر غير ذي صلة، حيث أن هذه المواقف تدمج في النمط الشامل من

الخطاب الثوري، وبالأخذ في الاعتبار كلمات "سيرجي كورجينيان" أحد كبار الايديولوجيين لمرحلة احياء ما بعد الماركسية للشيوعية، والذي كان المستشار الرئيسي للقوى المحافظة والموالية للشيوعية في القيادة السوفياتية، التي نظمت الانقلاب الفاشل في أغسطس 1991م، وحاولت الحفاظ على الاتحاد السوفياتي كقوة عظمى شيوعية حيث يقول: "إننا نعتبر الشيوعية ليس فقط كنظرية، بل على أنها ميتافيزيقيا جديدة تؤدي إلى خلق تعليم ديني عالمي جديد... ينطوي على العديد من السمات الأساسية ذات الأهمية الحيوية للحضارة، سمات دين عالمي جديد بقديسيه وشهدائه وحوارييه وعقيدته... ومن بين أسلاف الشيوعيين الذين لا جدال فيهم نميّز إشعيا ويسوع وبوذا ولاوتسي وكونفشيوس وسقراط...، واليوم لا يوجد بديل لما هو وراء الدين الشيوعي(10)، وعلاوة على ذلك يصير "كورجينيان" على أن روسيا منذ تاريخها القديم قد شهدت حاجة لفكرة ذات امكانية عالمية "مسيانية" قادرة على توحيد أوراسيا، وقد وجدت هذه الفكرة في الشيوعية، الحقل الأحمر والأخروية الشيوعية والصوفية الشيوعية موجودة وتبقى وستقوم في روسيا، ومن المحتمل جدًا أن هذه الأفكار ... سوف تجد مكانها ضمن مساحات أوراسيوية، والاندماج مع الأرثودكسية، والصوفية والبوذية، وربما التصوف الكاثوليكي(11).

إن هذا المثال من خطاب "التطرف الميتافيزيقي" يقلل أو حتى يمحو أي اختلاف بين الشيوعية والقومية والخطاب الديني، وثمة مثال آخر يجئ من رئيس

الحزب الشيوعي المجدد "غينادي زيوغانوف" أقوى منافس للقيادة السياسية والايديولوجية الروسية في روسيا اليوم، ومن وجهة نظر العقيدة "الايديولوجيا" والرؤية العالمية، فإن روسيا هي الحارس للتقليد الروحي القديم: فقيمها الأساسية هي "سوبورنوست"(12) (الجماعية)، وأن السلطة العليا للدولة [ديرزافنوست]، والسيادة [حرفيًا: كفاية الدولة]، وهدف تنفيذ المثل العليا "السماوية" للعدالة والأخوة في الواقع الدنيوي.(13)، وفي جملة واحدة، فإن العبارة مشبعة بالمعنى الديني "التقليد الروحي" "السوبورنوست" و"المثل السماوية" تدمج سوية مع "ديرزافنوست" و"الدولة" مأخوذة من مفردات القوميين، ومع "الجماعية" و"الأخوة" والكلمات الرئيسية من المصطلحات الشيوعية.

وهكذا يمكننا أن نحدد التطرف الميتافيزيقي باعتباره واحدًا من أقوى الاتجاهات في الفكر الروسي المعاصر، وعلى أنه نوع من الاستراتيجية الماوراء استطرادية التي تتجاوز الاختلافات الايديولوجية بين الحركات المعارضة سابقًا.

إن التاريخ الفكري الروسي هو تأريخ للفكر الذي يكافح بصورة مستميتة للهروب من سجن النظام الايديوقراطي، الذي خلقته الجهود المضنية والمضحية من الفكر ذاته، وما يجعل الفكر الروسي فريدًا جدًا من نوعه هو توتره الداخلي وكفاحه ضد ذاته، وضد بُناه المثالية وامتداداته الاجتماعية.

في الغرب قسم مجال الفلسفة بصورة أو أخرى من الوضوح إلى "مبحث الوجود" "الأنطولوجيا" نظرية الوجود، ومبحث المعرفة "ابستمولوجيا" "نظرية المعرفة"، وفي روسيا نجد أن مثل هذا التقييم يعد غير ذي صلة تقريبًا لما كانت الفلسفة تعالج مفهوم الوجود الذي هو ذاته قد بُني بالتفكير، وبداية من "تشاداييف" والمستغربين والسلافوفيلز ركزت الفلسفة الروسية على الحقيقة الثانوية التي خلقتها الأفكار، في روسيا حاول الفكر مواجهة انتصار الفكر، وقد عارضت القدرة التفكيرية، "النخبة المثقفة" ذاتها قدرة تفكيرية أخرى، "حكم البلهاء" ـ ولكن الأولى شكلت الأخيرة أيضًا، وهذه الحركة المتناقضة ذاتيًا من الفكر تحطم أسسها الخاصة، وتقدم سمة غير مسبوقة أحيانًا، سمة "انتحارية" للفلسفة الروسية، فقد تكون "مشتقة" و"ثانوية" ولكن ليس كثيرًا فيما يتعلق بالفكر الغربي المفتعل كما هو الحال بالنسبة للواقع الروسي الصحيح تمامًا والمختلق والمثالي.

وحتى الآن، لم تلعب روسيا دورًا مهمًا في الفلسفة أبدًا، ولكن الفلسفة لعبت دورًا هائلًا في روسيا، وخاصة في القرن العشرين، والآن بما أن النظام الايديوقراطي لم يتم تفكيكه نظريًا فحسب، ولكن من المأمول تجاوزه تاريخيًا، ويمكن للمرء تصور عكس هذه الاتجاهات، وبما أن الفلسفة ستلعب دورًا أقل بدافع متزايد من الأهداف المادية والاقتصادية، فإن الفلسفة الروسية تعيد النظر إلى تجربتها الفريدة في انكار الذات والتحرر الذاتي، وستضطلع بدور بارز على الساحة الدولية.

- ألكسندر مين (1935.1990) قسيس وكاتب روسي أرثوذكسي، يمكن اعتبار فكره نقطة تحول في الحياة الروسية بوجهٍ عام، إذ يُعزى إليه قيامه بدورٍ رائد في ارجاع المسيحية لواجهة الحياة اليومية، وذلك بعد انقطاع دام زهاء سبعة عقود إبان العهد السوفيتي، ويُعد مؤلفه "تاريخ الأديان" المكوّن من سبعة مجلدات ستة منها تدور حول البحث عن الطريق والحقيقة والحياة، فيما السابع تضمن عمله الشهير: "ابن الإنسان"، العمل الديني الأكبر والأجرأ أثناء ذلك العهد. "المترجم".

(3) تستند هذه الورقة على كتابي طول البحث الفلسفي الروسي والفكر الإنساني للفترة من 1950إلى 1991، الذي كنت أعمل فيه منذ عام 1992م، بموجب العقد مع المجلس الوطني للأبحاث السوفياتية والأوروبية الشرقية.

- ميخائيل إبشتاين: هو منظّر أدبي أمريكي روسي ومفكر ناقد، ومؤسس ومدير مركز الإبداع الإنساني في جامعة "دورهام".

** الايديوقراطية: Ideocracy تعني "حكم البلهاء".

*** الإخوة كارامازوف: رواية للكاتب "فيودور دوستويفسكي" ركزت على المسؤولية الشخصية الفردية تجاه أواصرها الإجتماعية، لقيت ترحيبًا واسعًا لدى كبار المفكرين مثل "فرويد" و"مارتن هيدجر" و"ألبرت انشتاين" وغيرهم، ونُظرَ إليها على أنها واحدة من الانجازات العُليا في الآدب العالمي."المترجم".

*الإسمانية: نزعة تقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي، وأنها لا تعدو أن تكون مجرد أسماء، وهي نزعة تعود لمؤسسها الفيلسوف "السكولاستي" "المدرسي (1050.1125)."المترجم"

**الواقعية: حركة نشأت في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، تعنى بتصوير الأشياء والعلاقات وتقديمها كما هي عليه في العالم الواقعي، وبتصوير الجوهر الداخلي للأشياء وتقديمه بصورة واضحة دون اللجوء للخيال."المترجم".

*** المفاهيمية: فن تشترك فيه المفاهيم أوالأفكار في الأعمال التي يكون لها الأولوية على الاهتمامات المادية والجمالية التقليدية."المترجم".

(4) The range of these teachings and their role in both traditional and contemporary Russian thought is presented in the recent volume *The Occult in Russian and Soviet Culture*, ed. by Bernice Glatzer Rosenthal. Ithaca and London: Cornell University Press, 1997.

* يعد كتاب "وردة العالم" الكتاب الرئيسي للكاتب والشاعر الروسي " دانييل أندرييف"، وقد ضمنه وصفًا تفصيليًا لطبقات الحقيقة الروحية التي تحيط بالأرض، وهي الحقيقة التي يعتمدها الدين المقبل الذي سيجيئ ليوحد بين البشر كافة، إلى جانب أنه ضمنه المبادئ الدينية والفلسفية التي يجتهد لأجلها."المترجم".

(5) On the relationship between existentialist and postmodernist elements in Sinyavsky's thought see my article "Siniavsky kak Myslitel'" (Siniavsky as a Thinker). *Zvezda* (S.-Petersburg), 1998, No. 2, 151-171

(6) Roman Jakobson. *Language in Literature* , ed. by Krystyna Pomorska and Stephen Rudy. Cambridge, Mass., London: The Belknap Press of Harvard University Press, 1987, p. 68.

(7) See, for example, the criticism of radical traditionalism in the neo-fascist journal *Ataka* (no date and place, No. 12, pp. 32-34) whose editor Sergei Zharikov was the main ideologist and the minister of culture in the "shadow" government of Vladimir Zhirinovsky.

(8) N.Fyodorov. *Filosofiia obshchego dela*. Cited in V. V. Zenkovsky. Istoriia russkoi filosofii, Paris: IMKA-PRESS, 1950, Vol. 2, s. 135.

(9) F. Nietzsche. *Schriften und Entwürfe 1881-1885. Werke*/Hrsg. von F.Koegel. 2. Abt. Bd.12. Leipzig, 1897, S.110.

(10) S. E. Kurginian, B. R. Autenshlius, P. S. Goncharov, Yu. V. Gromyko, I. Yu. Sundiev, V. S. Ovchinsky. *Postperestroika*, Moscow: Politizdat, 1990, pp. 59-60, 66.

(11) Sergei Kurginian. *Sed'moi stsenarii*. Moscow: Eksperimental'nyi tvorcheskii tsentr, 1992, vol.3, pp. 201, 228.

(12) In Russian, the term "*sobornost'*" means "togetherness," "the spirit of communality" and has theological origin and connotations (the spiritual experience of Russian Orthodox church). By adding "collectivism" as its synonym, Zyuganov wants to equate religious and communist views which is one of the central points of his ideological program ("Christ as the first communist").

(13) Published in the newspaper "Soviet Russia," September 24, 1994.

**Notes:**

(1) This paper is based on my book length research *Russian Philosophical and Humanistic Thought 1950-1991* on which I have been working since 1992 under the contract with the National Council for Soviet and East European Research (Washington DC).

(2) Rev. Georgy Florovsky. *Puti russkogo bogosloviia* (1937). 4th ed. Paris: YMCA-PRESS, 1988, pp. 234, 235.

(3) According to Florovsky, for the previous generation of Russian intelligentsia, of the 1810s-1820s, it was poetry (Zhukovsky, Batyushkov, Griboedov, Pushkin) that played the role of cultural magnet. The same is true about Soviet intelligentsia which in the late 1950s - early 1960s was obsessed with poetry and whose idols were Evtushenko, Voznesensky, Akhmadulina, and Okudzhava. Already in the late 1960s - early 1970s they surrendered their influence not to other poets, but to thinkers and scholars, such as Mikhail Bakhtin, Yury Lotman, and Sergei Averintsev. Florovsky has coined a formula for such a process of maturation: "From the *poetical* stage Russian cultural-creative consciousness transfers into the *philosophical* stage" (Florovsky, op.cit., p. 236).

(4) The range of these teachings and their role in both traditional and contemporary Russian thought is presented in the recent volume *The Occult in Russian and Soviet Culture*, ed. by Bernice Glatzer Rosenthal. Ithaca and London: Cornell University Press, 1997.

(5) On the relationship between existentialist and postmodernist elements in Sinyavsky's thought see my article "Siniavsky kak Myslitel'" (Siniavsky as a Thinker). *Zvezda* (S.-Petersburg), 1998, No. 2, 151-171.

(6) Roman Jakobson. *Language in Literature* , ed. by Krystyna Pomorska and Stephen Rudy. Cambridge, Mass., London: The Belknap Press of Harvard University Press, 1987, p. 68.

(7) See, for example, the criticism of radical traditionalism in the neo-fascist journal *Ataka* (no date and place, No. 12, pp. 32-34) whose editor Sergei Zharikov was the main ideologist and the minister of culture in the "shadow" government of Vladimir Zhirinovsky.

(8) N.Fyodorov. *Filosofiia obshchego dela*. Cited in V. V. Zenkovsky. Istoriia russkoi filosofii, Paris: IMKA-PRESS, 1950, Vol. 2, s. 135.

(9) F. Nietzsche. *Schriften und Entwürfe 1881-1885. Werke*/Hrsg. von F.Koegel. 2. Abt. Bd.12. Leipzig, 1897, S.110.

(10) S. E. Kurginian, B. R. Autenshlius, P. S. Goncharov, Yu. V. Gromyko, I. Yu. Sundiev, V. S. Ovchinsky. *Postperestroika*, Moscow: Politizdat, 1990, pp. 59-60, 66.

(11) Sergei Kurginian. *Sed'moi stsenarii*. Moscow: Eksperimental'nyi tvorcheskii tsentr, 1992, vol.3, pp. 201, 228.

(12) In Russian, the term "*sobornost'*" means "togetherness," "the spirit of communality" and has theological origin and connotations (the spiritual experience of Russian Orthodox church). By adding "collectivism" as its synonym, Zyuganov wants to equate religious and communist views which is one of the central points of his ideological program ("Christ as the first communist").

(13) Published in the newspaper "Soviet Russia," September 24, 1994.